السِّيرات في المجتمع الإباضي بوادي مزاب

أ.د/ إبراهيم بن بكير بحاز
أستاذ التاريخ الإسلامي- جامعة غرداية /الجزائر
bahazhistory@yahoo.com

الكتابة عن السيرة عند الإباضية في المشرق والمغرب كتابات، لأنها أي السيرة، ليس لها معنى واحد عندهم:

فالسيرة تعني بلا شك سيرة الرسول محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - كما هي عند جميع المسلمين وغير المسلمين[1] ممن اهتم بحياة نبينا -عليه السلام-.

والسيرة أو السير بصيغة الجمع، تعني تراجم العلماء بخاصة وهم ورثة علم النبي، والأعلام بعامة ممن له بصمة بارزة في قومه أو مذهبه أو مجتمعه أو زمانه.

والسير عند العُمانيين هي مواقف في العقيدة أو هي اتجاه في الفتوى وهي أيضا كتابة للتاريخ، فقبْل أن يُعرف مصطلح «التاريخ» عند العرب المسلمين في القرن الأول والثاني للهجرة، اختار العُمانيون مصطلح «السير» ليعبِّروا به عن التاريخ، ويكتبوا تحت مصطلحه بصيغة الجمع تاريخهم، فسيرة سالم بن ذكوان[2] في أوائل القرن الثاني الهجري إنما هي تاريخ ابن ذكوان، أو السير

(١) من المعروف أن العرب والعجم كتبوا عن الرسول «ص" كتابات طويلة ومتعددة، ولعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا إن سيرة نبي الإسلام عرفت من الكُتاب والكتابات ما لم يعرفه بشر على وجه البسيطة عددا ومجلدات، ولا تزال سيرته تثير الاهتمام وتدعو الأقلام إلى الغوص في جواهرها ولآلئها، ويكفي أن أشير إلى كتاب «المائة الأوائل" لمايكل هارت الذي لم يجد من بين مائة من البشر من لدن آدم عليه السلام إلى زمانه هو في أواخر القرن العشرين، من يستحق مقدمة وريادة وأول المائة بجدارة، من غير محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) عن سالم بن ذكوان وسيرته انظر: بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية ، قسم المغرب، الترجمة رقم ٣٦٥ وانظر عمرو خليفة النامي(الدكتور) دراسات عن الإباضية، ترجمة ميخائيل خوري، مراجعة ماهر جرار، محمد صالح ناصر مصطفى صالح باجو، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١: ٢٠٠١م، ص ٦٢ وما بعدها.

المحبوبية[1] هي التاريخ المحبوبي تماماً كما نقول تاريخ الطبري أو تاريخ ابن خلدون، مع الفارق في حجم الكتب بين هذا وذاك.

وقد دعوتُ في ملتقًى من ملتقيات وحدة الدراسات العُمانية بجامعة آل البيت، في مدينة المفرق بالمملكة الأردنية الهاشمية، إلى الاهتمام بهذه السير العُمانية تحقيقا ونشرا تحت عنوان "جمهرة السير العُمانية"، لعلمي بأهميتها وصدقها وعمقها والمادة التاريخية الغزيرة التي تحويها فضلا عن العقيدة والفقه، ولولاها ما استطاع الشيخ نور الدين السالمي -رحمه الله- أن يكتب كتابه «تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان»[2].

والسير عند إباضية المغرب، هي سيرة الحلقة أي حلقة العزابة[3] كما ضبطها مؤسسها الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي[4] في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر للميلاد، ثم بعد قرن تقريبا، تطور نظامها فكتب الشيخ أبو عمار عبد الكافي[5] في القرن السادس الهجري، الثاني عشر للميلاد، كتابه المعروف بـ «سير أبي عمار عبد الكافي»، ويقصد سيرَ الحلقة ونظامَها وضوابطَها.

والسير عند إباضية المغرب كذلك تعني التراجم للعلماء والأعلام، ولذلك نجد سلسلة من المؤلفات تحمل عنوان السيرة أو السير مثل: «السيرة وأخبار الأيمة « كما هي عند أبي زكرياء الوارجلاني في ق٥هـ/١١م، و «سير الوسياني» لأبي الربيع سليمان الوسياني في ق: ٦هـ/١٢م، و

(١) انظر عنها عليان الجالودي(دكتور) السير العُمانية مصدرًا لتاريخ عُمان، قراءة في مخطوط سير العلماء المحبوبيين، ص، ١٥ . ٦٧، وانظر د/ عبد الرحمن السالمي(دكتور) دراسة لكتابة قواميس البيوغرافيا في عُمان، ص ٧١، الملتقى الثاني لوحدة الدراسات العمانية، ٢٠٠٣، منشورات جامعة آل البيت ، المملكة الأردنية الهاشمية،١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٢) تحقيق أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، مط. الشباب، القاهرة، ١٣٥٠ هـ، مجلدان . وتوجد منه اليوم عدة نشرات لوزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عُمان ولوزارة الثقافة العمانية أيضا فضلا عن الناشرين الخواص.

(٣) عن مصطلحيْ الحلْقة والعزّابة عند إباضية المغرب، انظر: بحاز وآخرون: معجم مصطلحات الإباضية، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عُمان، ٢٠٠٩م ج.

(٤) عن مؤسس نظام الحلقة انظر معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، الترجمة رقم: ٨٠٣

(٥) عن أبي عمار عبد الكافي وكتابه انظر معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، الترجمة رقم: ٥٦٢

«سير الشماخي» في ق: ١٠هـ/١٦م[١]، وملحق السير لأبي اليقظان[٢] في ق: ١٤هـ/٢٠م

وهذه سير لطالما دَعَونا إلى إعادة تحقيق بعضها وتحقيق ما لم يُحقق بعد، ثم طبعها ونشرها مجملة تحت عنوان "جمهرة السير الإباضية المغربية"[٣].

والسيرات عند إباضية مزاب[٤] بالجزائر، مصطلح لم نقيِّده في معجم مصطلحات الإباضية التي تفضَّلَت وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عُمان بنشره عام ٢٠٠٩م مشكورة، هي من المصطلحات التي فاتتنا وغفلنا عنها، ويبدو لي أن أصلها اللغوي هو السيرة المسورية البكرية[٥] أي سيرة الحلقة عند تأسيسها، ولما وصلت وادي مزاب مُزِّبت أي وُضعت باللسان المزابي، وأُعطِي لها جمعٌ هو السيرات وهو عادةً جمعٌ للمفرد الأعجمي وإن كان بلغة العرب.

اختار المزابيون صيغة «السيرات» ولم يقولوا السّيَر لأنها أخف على لسانهم الأمازيغي، ولأن السير تعني سير الرجال أي تراجمهم، والسيرات بعيدة كل البعد عن هذا المعنى المباشر للسيرة، ثم إن هذا الجمع أي المؤنث السالم موجود في النطق الأمازيغي المزابي، مثل تَامَطُّوتْ تِيمَطَّاتْ أي: المرأة النساء ومثل سْتِيلُّو: القلم، سْتِيلاَّوَاتْ: الأقلام، وهكذا.

السيرات هي مجموعة ضوابط للسلوك المثالي كما عبر عنها الشيخ محمد صدقي -حفظه الله- في كتابه «السيرة تجسيد للسلوك المثالي رسالة في موضوع السير(السيرات)" الذي نشره عام ٢٠٠٣م والسيرات بصيغة الجمع المؤنث السالم، وهي أقرب إلى التعبير الأمازيغي بهذا الجمع، فيما يبدو لي من الجمع على «سِيَر»، وهذه السيرات ليست للعزابة فقط، وإنما تشمل

(١) عن أبي زكرياء الوارجلاني وكتابه وأبي الربيع سليمان الوسياني وكتابه وأبي العباس أحمد الشماخي وكتابه انظر معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، الترجمة رقم: ٩٨٤، ورقم ٤٥٢، ورقم ٠٨٠ وراجع كتبهم فهي مطبوعة متوفرة.

(٢) عن أبي اليقظان إبراهيم بن عيسى حمدي وكتابه المخطوط ملحق بسير الشماخي، انظر معجم أعلام الإباضية، الترجمة رقم:٠٤٢، علما بأن الطالب كروشي نور الدين قد قام منذ عامين بتحقيق جزئي لهذا الملحق في مذكرة للماجستير بقسم التاريخ جامعة قسنطينة ٢.

(٣)كان هذا في ملتقى بجامعة ليون ٢ بفرنسا عام ٢٠١٢م وملتقى بجامعة كامبريدج بابريطانيا عام ٢٠١٤م

(٤) مزاب وادي مزاب انظر علي يحي معمر: الإباضية في الجزائر الحلقة ٣ ، مراجعة أحمد أوبكة، المطبعة العربية، غرداية، وانظر الحاج سعيد يوسف: تاريخ بني مزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، المطبعة العربية، غرداية، ط٢، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، وراجع معجم مصطلحات الإباضية: المصطلح : مزاب، وادي مزاب، المزابيون.

(٥) عن هذا المصطلح ينظر معجم مصطلحات الإباضية، مصطلح مسورية ومصطلح بكرية.

العزابة وإيروان[1] وتيمسيريدين[2] وإمصوردان[3] وغيرهم من العناصر الفاعلة في المجتمع المزابي بوادي مزاب.

فالسيرات كما أسلفت، هي ضوابط للسلوك الاجتماعي عموما، تبرز من خلال ما يجب أن يلتزم به العزابي أو إيرو: أي طالب العلم أو تَمْسِيرَتْ: أي المرأة المكلفة من هيئة العزابة بغسل الموتى من النساء والأطفال ذكورا دون البلوغ والإناث، وأَمَصُّورْدُو: الفرد المتطوع للخدمة العامة.

تَقَدُّمُ العزابة في كل شيء هو من السِّيرات، فهم المرجعية العليا في مجتمع مزاب، وتقدُّمُهم مضبوط بسيرات في سلوكهم فيما بينهم كلامًا ووعظًا ومشيًا ووقوفًا وتحليقًا وترتيبًا في الحلقة أثناء تلاوتهم لكتاب الله، وفي مجالسهم الخاصة ودخولهم المجلس وخروجهم منه، وفي دروسهم وأكلهم وشربهم، وفي توزيع الصدقات اليومية والموسمية والسنوية، وفي حضورهم الأعراس والجنائز، وحضورهم الأسواق وإن كان من السيرات ألا يُكثروا من دخول الأسواق.

السيرات سلوك منضبط يتقيد به أفراد المجتمع بوادي مزاب، مستلْهَمة من كتاب الله وسنة رسوله كما كتب الشيخ الشهيد بلحاج قشار -رحمه الله- في الثمانينيات من القرن الماضي، كتابه (عوائد مزاب سنن لا تقاليد)[4]، فعمل على تأصيل العديد من العادات المزابية، وإن لم يعطها مصطلح السيرات، ولكن شعَرت أنه يريد هذا بالذات.

فمن السيرات التي يمكن ذكرها للتمثيل لا الحصر ما يلي:

١- لباس الحائك الصوفي الخفيف أو الثقيل، بحسب الموسم حرا أو بردا، خاص بالعزابة لتمييزهم به، وهو حائك متواضع جدا، وطريقة لبسه هي نفسها من السيرات.

٢- مواسم التلاوة، وأماكنها في قرى وادي مزاب من السيرات.

(١) إيروان جمع إيرو وهو طالب العلم، لمزيد من التوضيح والشرح انظر المصطلح في معجم مصطلحات الإباضية

(٢) عن تيمسيريدين أي غاسلات الموتى من الإناث، انظر المصطلح في معجم مصطلحات الإباضية.

(٣) عن إمصوردان أي الأفراد المتطوعون، انظر المصطلح في معجم مصطلحات الإباضية.

(٤) الكتاب مطبوع ، ومتداول في مكتبات وادي مزاب.

٣- مواسم الصدقات المسجدية، أو الوقفية مثل ما يُعرف بـ: «تِنُوبَاوِينْ»[1] تُودى بنظام السيرات، وتُفرَّق وتُوَزَّع بذلك النظام.

٤- الأدعية "تْوَأْتَرَا" في البدايات والنهايات لجل الأعمال إن لم أقل كلها، هي من السيرات وكيفية أدائها ومن يؤديها بحسب مناسبتها من السيرات، وتتم الأدعية وجوبا بضم الكفين معًا ورفعهما قليلا وكلُّها من السيرات...

٥- ضوابط الجنائز، غسلا للميت وحملا له وأدعية وتوجيها ودفنا وتحليقا وصدقات في المقبرة أو في دار الميت من السيرات..

٦- ضوابط الأفراح مثل الأعراس تتم بإشراف العزابة وجوبا لمن يرجو بركة حضور العلماء من حفظة كتاب الله عرسَه، وتسير مجرياتها ضمن السيرات المتعارف عليها... وغيرها كثير جدا في الواقع المعيش للمزابيين في الجزائر وكذلك إباضية وارجلان.

ومما يحمي هذه السيرات ويتركها حية متداولة، قول أحدهم للآخر:

- لا تقتل السيرات.

- افعل هكذا فإنه من السيرات.

- أو السيرات أن تفعل هكذا.

وأغلب هذه السيرات شفوية، ولذلك أجدني أدعو إلى تسجيل هذه السيرات كتابًا، فكم تمنَّيت لو أن الشيخ محمد صدقي كتب في هذا كتابه الذي سلف ذكر عنوانه، وقد رمى فيما بدا لي إلى ذلك في بداية الكتاب، إلا أنه لم يفعل واكتفى بذكر سير حياة بعض مَنْ كتب في السير ومحتوى بعض تلك الكتب.

إذن فالدعوة قائمة وملحة لتحرير كتاب في السيرات، يَحفظ للأجيال ما تبقّى منها، ويذكِّرنا بما فات، ويصنفها ويرتبها بحيث تتَّضِح أكثر، ويشرحها لتبيان مراميها ومغزاها، ثم يبين مدى

(١)جمع انتوبة هي صدقة موسمية تتبع العقارات من المساكن، عنها انظر: معجم مصطلحات الإباضية.

علاقتها بمزاب وحده، أم هي في الأصل عند إباضية المغرب عموماً، فلماذا بقيت في وادي مزاب بالجزائر وتقلصت أو اختفت تماماً عند إباضية جربة ونفوسة اليوم؟ هل لبقائها علاقة ببقاء نظام العزابة قائما كمرجعية قوية في وادي مزاب، وغيابه عن جربة ونفوسة بسبب غياب العزابة؟

وما أحوج المجتمعات الإسلامية إلى هذه الضوابط للاقتراب من سير الراشدين وسلوكهم الذي أُمِرْنا باتباعه في قول رسولنا الكريم: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ» إن أردنا الاقتداء ورُمْنا اللحاق بركب الحضارة في إطار ديننا ومرجعيتنا.

وأختم بأن معظم الانضباط والالتزام عند إباضية المغرب، إنما هو راجع للعقيدة الإسلامية التي تمكَّنت في نفوس الإباضية من جهة، ويعود من جهة أخرى إلى هذه السيرات التي ضَبَطت سلوك المزابيين بوجه خاص ولا تزال تؤدي دورها إلى يوم الناس هذا.